



أهل الصفة لدراسات التصوف وعلوم التراث

مجلة علمية دولية محكمة
تعنى بحقائق علوم الشريعة
ودقائق علوم الحقيقة

رقم (الطبعة المطبوعة): 4967 - 3062

رقم (الطبعة الإلكترونية): 4975 - 3062

المجلد الثالث - العدد الأول

ذو الحجة ١٤٤٧هـ

يونيو ٢٠٢٦ م



البيته المحمدي للتصوف

تصدر عن أكاديمية أهل الصفة لدراسات التصوف وعلوم التراث
بمؤسسة البيت المحمدي المشهورة برقم (10684) لسنة (2017)

الأصول الأخلاقية للتصوف السني عند محمد المكي الناصري (ت:
1414هـ) وأبعادها المقاصدية

THE ETHICAL FOUNDATIONS OF SUNNI SUFISM IN
MUHAMMAD AL-MAKKI AL-NASIRI'S THOUGHT (D.
1414 AH): A STUDY OF THEIR MAQĀSĪD AL-SHARĪ'AH
DIMENSIONS¹

حميد حقي

جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب

Hamid Hakki

Sultan Moulay Slimane University, Morocco

⁽¹⁾ Article received: January 2026; article accepted: April 2026

الملخص:

يروم هذا البحث استجلاء البنية الأخلاقية والقصدية في المشروع الإصلاحية للعلامة محمد المكي الناصري، من خلال الكشف عن مرتكزات التصوف السني في فكره، باعتباره تريباً وعلاجاً للاعتلال السلوكي والجمود الروحي. تنطلق الدراسة من إشكالية مركزية تبحث في كيفية صياغة الناصري لمنظومة تزكوية تجمع بين صفاء الباطن وفاعلية الشهود الحضاري، متجاوزاً بذلك الصور النمطية للتصوف الدخيل، المخالف لأحكام الشريعة الإسلامية. وقد اعتمد البحث المنهج الاستقرائي التحليلي لتفكيك مفاهيم التزكية، والتحقق الإيماني، والأمانة، وعمارة الأرض في متن الناصري التفسيري والإصلاحي. وخلصت الدراسة إلى أن الأخلاق عند الناصري تمثل البوصلة المقاصدية التي تخرج المكلف من ضيق الأناية إلى سعة المسؤولية الاجتماعية؛ حيث تربط التزكية الفردية عضويًا بإصلاح العمران وتحقيق قيم السلم والعدل. وبذلك يقدم البحث رؤية تجديدية تقرأ التصوف السني على أنه قوة دافعة للتخليق الشامل للحياة العامة، وعلى أنه ضمانة لاستعادة التوازن المفقود بين أشواق الروح في سير الإنسان إلى الله وحرصه على تزكية نفسه، ومقتضيات الواقع المعاصر في علاقته بالآخرين وبالمحيط الذي يعيش فيه.

Abstract:

This research aims to elucidate the ethical and teleological structure within the reformist project of Al-Allāma Muḥammad al-Makkī al-Nāṣirī, exploring the foundations of Sunni Sufism in his thought as an antidote to behavioral ailments and spiritual stagnation. The study addresses a central problematic: how al-Nāṣirī formulated a purificatory system that integrates inner purity with active civilizational engagement, transcending stereotypical forms of heterodox Sufism that contradict the rulings of Islamic Sharia. Utilizing an inductive-analytical methodology, the research deconstructs concepts such as spiritual realization, faith-based verification, the Great Trust (Amānah), and the cultivation of the earth (Imārat al-Arḍ) within al-Nāṣirī's exegetical and reformist corpus. The findings reveal

that ethics, for al-Nāṣirī, serve as a Maqāsidic compass guiding the individual from the constraints of egoism to the breadth of social responsibility; where individual purification is organically linked to societal reform and the actualization of peace and justice. Ultimately, the research offers a reconstructive reading of Sunni Sufism as a driving force for the comprehensive moralization of public life, and as a safeguard for restoring the lost equilibrium between spiritual aspirations in the journey toward God and the requirements of contemporary reality in relation to others and the surrounding environment.

الكلمات المفتاحية: التصوف السني، التزكية، المقاصد الأخلاقية، الإصلاح السلوكي.

Keywords: Sunni Sufism, Spiritual Purification, Ethical Objectives, Behavioral Reform.

المقدمة

إن ما حاق بالأمة اليوم من أزمات فقدان الذات، وفراغ الروح، وضياع البوصلة الأخلاقية... كل ذلك يضعنا أمام ضرورة ملحة للعودة إلى تراثنا الإصلاحية المغربي، وتحديدًا في شقه التربوي والسلوكي. إيمانًا بأن التصوف السني في صفاء مورده وانضباطه بالوحي يمثل أحد أهم المداخل الكفيلة بتقويم الاعتلال السلوكي وتحقيق التوازن الوجداني، باعتباره الحامل لمضامين التزكية والترقية الإنسانية في أرقى صورها.

أولاً: أهمية البحث وأسباب اختيار الموضوع:

لقد أثرت أن أستند في هذا العمل إلى التجربة العلمية والنضالية لأحد أعمدة الفكر المغربي الحديث؛ وهو محمد المكي الناصري؛ وهذا الاختيار أملت اعتبارات منهجية وعلمية عديدة؛ منها:

- كون المكي الناصري يمثل نموذجًا فريدًا للعالم الذي استطاع الجمع بين أصالة التكوين وبين حداثة الرؤية المفتوحة على قضايا العصر ومناهجه.
- تميز فكره بقدرة فائقة على تشخيص الأدواء السلوكية وتفكيك بنية الطرقية المتبدعة، سعيًا منه لإعادة التصوف إلى حضن الكتاب والسنة.
- كونه لم ينظر إلى الأخلاق بوصفها ترفًا وجدانيًا معزولًا، بل اعتبرها محرکًا حضاريًا وقوة دافعة لعمارة الأرض وإصلاح المجتمع.

ثانيًا: إشكالية البحث:

إن الملاحظ على كثير من المقاربات التي تناولت فكر المكي الناصري انشغالها المفرط بجوانبه السياسية، أو الصحفية، أو التفسيرية الصرفية، دون إيلاء العناية الكافية للبنية الأخلاقية التي تشكل الناظم المستتر لجميع مواقف الإصلاحية. ومن هنا يبرز سؤال أصالة الأخلاق وقصديتها في هذا المشروع، كإشكالية مركزية تستدعي الكشف عن العلاقة الجدلية بين تزكية الباطن واستقامة الظاهر في فضاء الشأن العام.

ويمكن تفريع هذه الإشكالية إلى الأسئلة الإجرائية الآتية:

ما هي الأصول المرجعية التي تأسس عليها مفهوم التصوف السني عند المكي الناصري؟

كيف صاغ الناصري منهج التزكية والتحقق الروحي كمسار لتحرر النفسي والسمود الأخلاقي؟

وما هي الامتدادات الاجتماعية والمقاصد الإصلاحية لهذه المنظومة في بناء العمران وتحقيق قيم السلم والعدل؟

ثالثًا: أهداف البحث:

- تسعى هذه الدراسة إلى مقارنة إشكالياتها من خلال الأهداف الآتية:
- استجلاء الرؤية النقدية للناصرى تجاه مظاهر الانحراف السلوكي بجميع تجلياتها.
- إبراز كيفية اشتغال قيم التزكية في صياغة الشخصية المؤمنة الفاعلة.
- تبيان الوظيفة المقاصدية للأخلاق بوصفها أمانةً عظمى تروم عمارة الأرض وتحقيق التضامن الاجتماعي.

رابعًا: الدراسات السابقة:

الملاحظ من خلال تتبع الأعمال التي اهتمت بشخصية المكي الناصري أنها انصرفت في مجملها إلى دراسة إسهاماته في تفسير القرآن الكريم، بينما لم أف - في حدود اطلاعي - على دراسة مستقلة تفرد موضوع التصوف وعلاقته بالمنظومة الأخلاقية والمقاصدية لديه بالبحث والتحليل؛ بل ظل هذا الجانب غائبًا أو مضمّرًا في ثنايا تلك الدراسات التي اتخذت من التفسير موضوعًا لها، ومن أبرزها:

- «الاتجاه الموضوعي في تفسير القرآن الكريم بالمغرب: الشيخ محمد المكي الناصري نموذجًا»: وهي أطروحة دكتوراه للباحثة أمينة أبو الأفيال، نالت بها الدرجة العلمية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك بالدار البيضاء، سنة 1995م.

- «منهج الشيخ محمد المكي الناصري وجهوده في التفسير»: وهي أطروحة دكتوراه للباحث محمد رابع حسين الشامي، نال بها الدرجة العلمية من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة 2019م.

- «مقاصد القرآن الكريم عند الشيخ محمد المكي الناصري من خلال تفسيره»: وهي دراسة للباحثة حليلة حمداوي، نالت بها درجة الماجستير (الماجستير) في الدراسات الإسلامية سنة 2023/2022م من جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب.

- «التفسير الإذاعي للقرآن الكريم»: وهي دراسة للباحث عبد العزيز عبد الرحمن الضامر، منشورة ضمن العدد الأول من مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية الصادر سنة 1427هـ بالسعودية.

- «الشيخ المكي الناصري مفسراً»: وهي دراسة للباحث عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس، منشورة ضمن العدد 13 من مجلة الإحياء الصادر سنة 1419هـ عن الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب.

وهذه الدراسات كلها وإن كانت قد أضاءت جوانب مشرقة من عبقرية الناصري المنهجية والمقاصدية، إلا أنها لم تلتفت إلى أصول الأخلاق وقصديتها باعتبارها ركيزة المشروع الإصلاحية ومحرك التجربة الصوفية السنية عنده؛ ومن هنا تكمن جدة هذا البحث وأصالته، في كونه يروم سد هذا الفراغ العلمي عبر استنطاق البنية التربوية والحضارية لمنظومته القيمية، وتجاوز المقاربات التقليدية التي تحصر فكره في دائرة التفسير المحض.

خامساً: منهج البحث:

تعتمد هذه الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي؛ عبر تتبع المفاهيم الأخلاقية والمقاصدية في متن المكي الناصري، ثم تحليلها وظيفياً للكشف عن أبعادها التربوية والحضارية. كما تستعين بالمنهج المقارن في مواضع محدودة لبيان وجه الاتصال بين أطروحات الناصري وبين أصول التصوف السني عند كبار العارفين والمحققين.

سادساً: خطة البحث:

انتظمت مادة هذا البحث في خطة متناسقة، استفتحتها بعد هذه المقدمة بتمهيد حول مسار المكي الناصري وتكوينه العلمي. ثم أعقبت ذلك بثلاثة مباحث مترابطة:

المبحث الأول: الأصول والمنطلقات المرجعية للتصوف السني عند المكي الناصري.

المبحث الثاني: منهج التزكية والتحقق الروحي.

المبحث الثالث: الامتداد الاجتماعي والمقاصد الإصلاحية.

الخاتمة: جمعت فيها أهم النتائج.

تمهيد

المكي الناصري مسار عالم ومصلح⁽²⁾

إن الدارس لحياة الشيخ محمد المكي الناصري (ت 1414هـ) يجد نفسه أمام موسوعة متحركة اختزلت قرناً من التحولات الكبرى في المغرب الحديث. ولد بمدينة الرباط بتاريخ 24 شوال 1324هـ موافق 11 ديسمبر 1906م، وقد نشأ في كنف أسرة ناصرية عريقة، مشبعة بروح العلم والخلق، مما هيا له بيئة خصبة لتلقي أولى معارفه قبل أن ينطلق في رحلة علمية قل نظيرها في تنوعها ومشاربها؛ إذ لم يكن الناصري طالب علم تقليدي، بل كان رحالة معرفياً استوعب دروس القرويين قبل أن تفتح له كليات القاهرة وباريس وجنيف أبوابها.

وإذا تأملنا في خارطة تكوينه العلمي، نلمس ذلك المزج الفريد بين أصالة المنهج وحدائث الرؤية؛ فقد نهل من معين كبار علماء المغرب كأبي شعيب الدكالي، والمدني بن الحسيني، ومحمد السائح، والحجوي التعالي، وشقيقه محمد الناصري... بيد أن طموحه المعرفي لم يقف عند حدود الجغرافيا المحلية؛ حيث رحل إلى مصر في أواخر العشرينيات، وهناك تجلت شخصيته المستقلة؛ فحين لم تسعفه قوانين دار العلوم للالتحاق بها، لم يتردد في طرق أبواب الأزهر، ثم الجامعة المصرية التي استقبله فيها عميد الأدب العربي طه حسين بتقدير خاص، حيث صرح الناصري لاحقاً بأنه دخل تلك الكليات وهو عالم يختار من الدروس ما يسد حاجته للنهضة للفلسفة وعلم الاجتماع. وممن لقيهم واستفاد منهم من المشاركة مصطفى عبد الرزاق ومنصور فهمي ويوسف كرم وعبد الوهاب عزام.

(2) من مصادر ترجمته: محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى، الطبعة الأولى، (1347هـ/1929م)، وأنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، (القاهرة: طبعة الدار القومية، 1385هـ/1965م)، ومجموعة من الكُتُاب، سيرة الشيخ محمد المكي الناصري، (الرباط: دار المعارف، 1991هـ).

ولعل دراسته للقانون الدولي العام بسويسرا يمثل حلقة الوصل بين الفقه والسياسة؛ فقد لقي هناك أمير البيان شكيب أرسلان، وتأثر بمدرسه الإصلاحية التي تربط بين اليقظة الدينية والتحرر الوطني. وأحسب أن هذا التنوع المشربي هو الذي صنع من الناصري فقيهاً منفطحاً على مختلف قضايا السياسة والمجتمع، وتجلّى ذلك الانفتاح بشكل أكبر في تفسيره الذي كتبه بروح اجتماعية عالية.

أما ميدان النضال من أجل الوطن فكان للناصرى فيه صولات وجولات لا يحوها النسيان؛ فقد كان صوتاً قويا في المؤتمر الإسلامى بالقدس عام 1931، حيث ألقى خطاباً صنف كواحد من أهم وثائق الحركة الوطنية المغربية في نشأتها السلفية. ولقد واجه الاستعمار الفرنسى والإسباني بجرأة نادرة، فأسس حزب الوحدة المغربية عام 1938، وظل يذود عن حياض الوطن عبر صحفه "المغرب الجديد" و "الوحدة"، مما عرضه للنفي والتصفيق مرات عديدة. كما أنه كان عضواً مؤسساً وعملاً في لجنة تحرير المغرب العربى التي أنشأها محمد عبد الكريم الخطابى بالقاهرة، وعضواً في الوفد الذي قام بتمثيل المغرب ورفع شكواه والدفاع عن قضيته لدى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة من سنة 1951 – 1955.

ويتحصل من استقراء نتاجه الفكرى أنه لم يترك باباً من أبواب المعرفة الإسلامية والإصلاحية إلا وطرقه؛ فقد بدأت رحلته مع التأليف في وقت مبكر مع كتابه "إظهار الحقيقة وعلاج الخليفة" الذي خاض فيه معركة تنقية التصوف من الخرافات وهو ما يزال شاباً. ولقد توج هذا المسار بمؤلفه الضخم "التيسير في أحاديث التفسير" الذي جمع شتات أحاديثه الإذاعية في ست مجلدات، وإلى جانب هذين العملين البارزين نجد قائمة من المؤلفات التي شكلت أعمدة فكره الإصلاحى؛ ومنها الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى، مكانة الاجتهاد في الإسلام، تاريخ التشريع الإسلامى... وغيرها.

وعلى الرغم من تعدد المهام الرسمية التي تقلدها من سفير للمغرب بليبيا، إلى عامل على إقليم أكادير، وصولاً إلى ترعيه على كرسي وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافة في السبعينيات، إلا أن النزاع الإصلاحي ظل يسكنه. فقد كان أميناً عاماً لرابطة علماء المغرب ورئيساً للمجلس العلمي للرباط وسلا. ولعل مسك الختام في حياته الحافلة كان نياله لوسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة، تقديرًا لرحلة علمية انتهت في ذي الحجة سنة 1414هـ، مخلفاً وراءه إرثاً يجمع بين تزكية النفوس وتحرير العقول.

المبحث الأول

الأصول والمنطلقات المرجعية للتصوف السني عند المكي الناصري

إن وضع اليد على الجذور المعرفية والمنطلقات التأسيسية لفكر المكي الناصري يستوجب منا ابتداءً إدراك حجم التقابل الذي وضعه بين حقيقة التصوف السني وبين زيف الطريقة المبتدعة. فالبحث في أصوله الأخلاقية لا يمكن أن يستقيم إلا بفهم تلك القاعدة الصلبة التي انطلق منها لإعادة بناء الوجدان المغربي، وهي قاعدة الاتباع الصارم لمرجعية الكتاب والسنة.

المطلب الأول: حقيقة التصوف السني ومقوماته في السياق المغربي:

عندما نقرر الغوص في فكر المكي الناصري الأخلاقي نجد أنفسنا أمام محاولة جادة لإنقاذ مفهوم التصوف مما لحق به من تشويه؛ فالرجل لا يرى في التصوف حالاً من الزهد الانعزالي، لكنه يراه محرّكاً اجتماعياً قادراً على صياغة الهوية الوطنية وتوجيه طاقات الأمة لتحقيق مصالحها العامة على مختلف المستويات والأصعدة.

1. في حقيقة التصوف السني:

لقد بذل الناصري جهداً كبيراً لتبرئة أئمة التصوف الأوائل من كل ما أحدثه الأعداء من بعدهم، إذ يقطع في هذا السياق بأن "الصوفية رضي الله عنهم برآء من ذلك كله، وطريقهم منزّهة عن فعله، وإنما تلك بدع أحدثت في الطريق ليست منها في شيء، ولو قدر الناس الطريق حق قدرها لأجلوها ونزهوها عن البدع والأهواء"⁽³⁾، معتبراً أن التصوف في صفائه هو أكبر داع في الأمة لتأليف القلوب وتوحيد الكلمة.

وفي إشارة تربوية فريدة يؤكد أن التصوف الحقيقي بمقدوره أن يحقق في المجتمع ما لا يمكن تحقيقه بقوة السوط، وبيان ذلك أن السوط يحرك الأجسام قهراً، بينما التصوف يحرك القلوب طوعاً، وشاسع هو الفرق بين من ينضبط في الظاهر خشية العقاب، ومن

⁽³⁾ محمد المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، (المغرب: منشورات السبيل، 2010م)، ص95.

يعمل في الظاهر والباطن رغبة في الإصلاح ومراقبة للحق؛ إذ الرقابة الذاتية التي يثمرها التصوف السني من شأنها أن تغني المجتمع عن ترسانة من القوانين الزاجرة التي لا تصلح باطنًا ولا تقيم اعوجاجًا مستدامًا.

فالناصرى لا يقبل التصوف إلا إذا كان سنّيًا، والمقصود بسنية التصوف موافقته الشرعية، وقدرته على توحيد الكلمة وتوجيه الجموع في صالح المستعمرين والمستضعفين.

2. تشخيص الاعتلال السلوكي:

يقدم الناصري تشریحًا واضحًا لواقع بعض المسالك السلوكية المتأزمة في عصره، وهو في ذلك لا يعمم حكمه على أصل التصوف، بل يخص بالنقد ممارسات عينية يراها خروجًا عن جادة السنة.

ويبدأ هذا التشخيص بتعريف فئة الغلاة في تعظيم المشاهد، وهم عنده أولئك الذين انحرفوا ببوصلة التوحيد؛ حيث اتخذوا القبور مزارات تضاهي المعابد في زخرفتها وسرفها، واصطلحوا فيها على هيئات تشبه كنائس النصارى⁽⁴⁾. ويرى الناصري أن خطورة هذا الخلل تكمن في قلب المراتب العقدية، كتقديم الحق سبحانه وسيلة للمقبرين في الطلب والدعاء.

وتعقيبًا على هذا الطرح وجب التأكيد على أن نقد الناصري لا يستهدف مقامات الصالحين ولا كرامات الأولياء الذين هم قدوة وأسوة في السير إلى الله، وإنما ينصب نقده على "العوارض السلوكية" التي حجب جوهر التزكية. فالتصوف الأصيل كما قرره أئمة كالكشيري والجنيد يقوم أساسًا على تعظيم الشريعة وتجرید التوحيد، وما رصده الناصري إنما هو نقد لنمط من "التدين الشعبي" الذي خلط بين التبرك المشروع بالغلو الممنوع، وبذلك يظل انتقاده صرخة إصلاحية لإعادة التصوف إلى نقائه الأول، بعيدًا عن تقديس الوسائل على حساب المقاصد.

(4) المكى الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 86.

ولا بد من الإشارة كذلك إلى أن قضية اتخاذ القبور مزارات تعد من المسائل التي أفردها العلماء بالتأليف تحريراً وتفصيلاً؛ ومن ذلك ما قرره الشيخ محمد زكي إبراهيم في كتابه "الإفهام والإفحام"، حيث ذهب إلى أن "قصد الأماكن والمعالم المباركة التي يرجى فيها استجابة الدعاء والتوسل بالمساجد والأضرحة شرع منصوص، وقد بينت كتب الحديث في أبواب الدعاء أن هناك أمكنة وأزمنة يكون الدعاء فيها أرجى من غيرها، لقداستها وطهارتها ونزاهتها عن الدنس والخطيئة"⁽⁵⁾. مستدلاً لذلك بما ورد في كتب الحديث والسيرة من نزول المصطفى ﷺ في رحلة الإسراء للصلاة في أمكنة معينة كطور سيناء ومولد عيسى عليه السلام، وهو ما يدل على مشروعية التبرك بالأماكن المتصلة بالأنبياء والصالحين ضمن حدودها الشرعية.

أما مسألة إقامة القباب على الأضرحة، فيوضح الشيخ محمد زكي إبراهيم أنَّ الأمر ليس طارئاً في الأمة؛ حيث يشير التتبع التاريخي إلى أنَّ أول من بنى قبة على القبر النبوي من طابقين هو السلطان قايتباي عام 886هـ. مشيراً إلى أن المصادر التاريخية تتحدث عن أنَّ أول من بنى قبة على القبر الشريف هو الملك المنصور بن قلاوون، وأنه توالى عليها التجديدات في عهد السلطان حسن ثم السلطان شعبان، وصولاً إلى عمارة قايتباي الذي يُعد أول من عمّر الحجرة الشريفة وأنشأ حولها السور المعدنيَّ وجدد المنائر⁽⁶⁾.

ويسترسل الناصري في نقده ليصل إلى فئة المتكلمين في مجالس الذكر، وهم الذين أخرجوا الذكر عن وقاره الساكن إلى صخب الحركات التي تشبه الرقص، فجعلوا من القيام والاضطراب هيئة ملازمة للذكر الجهري، ظانين أن ذلك بذاته عبادة مقصودة لذاتها⁽⁷⁾،

⁽⁵⁾ محمد زكي إبراهيم، الإفهام والإفحام أو قضايا الوسيلة والقبور، الطبعة الخامسة، (القاهرة: مؤسسة إحياء التراث الصوفي، 2004م)، ص 59.

⁽⁶⁾ محمد زكي إبراهيم، المشروع والمنوع، (القاهرة: دار إحياء التراث الصوفي، د.ت) ص 13.

⁽⁷⁾ المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 88.

بينما هو في حقيقته مسلك ووسيلة روحية لا إرادية لتحقيق الحضور مع الله، لا غاية تعبدية في ذاتها.

وإنصافاً للمؤلف وللمنهج السلوكي معا تجدر الإشارة إلى ضرورة التفريق بين (الشطح) بمفهومه الذوقي الأصيل وبين (التكلف الحركي) المصطنع. فالشطح عند كبار الصوفية إنما هو حالة من فيض المواجيد، وقد عذرهم فيها العلماء لكونهم في حالة سكر روحي لا يملكون معها زمام التحكم. أما نقد الناصري فإنه ينصبُّ تحديداً على (التمثيل الحركي) والرقص المتعمد الذي يُتخذ كطقس تعبدي جماعي، وهو ما اعتبره خروجاً عن هدي السلف في الذكر القائم على السكينة والوقار. ففرقاً بين (مغلوب) على حاله، وبين (مُستجلب) للحركات يظهرها ديناً مقصوداً لذاته.

وفي السياق نفسه يورد الشيخ محمد زكي إبراهيم تفصيلاً دقيقاً يفرق فيه بين الحركة الوجدانية الصادقة وبين الرقص المتكلف، مستشهداً بقصيدة طويلة للشيخ إبراهيم الخليل الشاذلي يقول في مطلعها:

(الرقص) في الأذكارِ قَدْ مَنَعُوهُ ... أما (التمايل) فَهُوَ مَا مَدَّحُوهُ
 إِنَّ التمايل كالدليل على الذي ... في القلبِ مِنْ وَجْدٍ، هُوَ حُرْمُوهُ
 إِنَّ التمايلِ فِعْلٌ أربابِ النُّهى ... والرَّقْصُ يفعله الفسى المعتوه

ويؤكد هذا المعنى بقوله: "الرقص في الذكر والتطويح والاهتزاز يميناً ويساراً، بلا وقار ولا أدب، خصوصاً إذا صاحبتة الطبول والمزامير بأنواعها حرام؛ لأنه لم يرد في كتاب ولا سنة"⁽⁸⁾. غير أنه يستثني من ذلك "التمايل الوقور الخاشع في الذكر مما نقله السلف... وهو نوع من التذلل والشوق، لا عيب فيه"⁽⁹⁾.

(8) محمد زكي إبراهيم، المختار من كتاب المرجع: معالم المشروع والمنوع من ممارسات التصوف المعاصر، الطبعة الخامسة، (القاهرة: مؤسسة إحياء التراث الصوفي، 2005م) ص61

(9) محمد زكي إبراهيم، معالم المشروع والمنوع من ممارسات التصوف المعاصر، ص62.

ويتأكد من هذا أنّ نقد الناصري لصخب الحركات يتسق تمامًا مع ما قرره غيره من محققي الصوفية؛ إذ ينصبُّ الإنكار على الهيئات التي تفتقر للوقار الشرعي وتخرج بالذكر عن مقصوده التعبدي إلى هيئات العبث والتمثيل.

أما المظهر الثالث من مظاهر هذا الاعتلال - بحسب المكي الناصري - فيتجلى عند فئة المستلبين خلف الطقوس الشاذة، ويقصد بهم الأقسام الذين "اصطلحوا على جعل يوم من السنة مخصوصًا بفضيلة أكل اللحوم النيئة والطواف في الأسواق، ودق الطبول والنفخ في الأبواق، وتلطيف الثياب بالدماء المسفوحة طول يومهم الذي يكونون فيه قرناء الشيطان، مع أكل الزجاج والشوك والحيات والعقارب وشرب القطران"⁽¹⁰⁾. وهذه الصورة عنده تمثل قمة التردّي السلوكي الذي ينسب زورًا للطريق.

ويجتم الناصري هذا المشهد القائم بالحديث عن فئة مشدخي الرؤوس، وهي عنده الأبعث منظرًا، حيث يطوف أصحابها الأسواق بالطبول والأبواق، وهم "يشدخون رؤوسهم أثناء تطوفهم ويضربونها ويسيلون دماءها بالأسلحة والفؤوس والقلال وغيرها من أنواع الآلات"⁽¹¹⁾. ويا للعجب! كيف ينسب إلى طريق الصفاء والطهر من يجعل من إيذاء الجسد وسفك الدماء قرينًا؟ إنها مفارقة يشدد الناصري على تعريتها ليعيد للتصوف بماءه ورونقه الذي حجبه غبار هذه السلوكيات المنحرفة.

وعلى الرغم من قسوة هذه المشاهد النقدية التي ساقها الشيخ المكي الناصري، إلا أنّها تظنُّ في سياق رصد الانحرافات البشرية لا المنهجية؛ وهو ما ينسجم مع القاعدة الكلية التي قررها الشيخ محمد زكي إبراهيم في التمييز بين المنهج وسلوك المنتسبين إليه؛ إذ يقرر أن "التصوف شيء غير الصوفي أو المتصوف، فهل نترك التصوف بكل ما له من الفضائل

(10) المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 90.

(11) المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 91.

لأن ممن ينتسب إليه منحرفين أو منجرفين أو مقترفين أو جاهلين أو نحوهم، طبعاً وشرعاً وعقلاً نقول: لا ولا ثم لا" (12).

وعلى هذا الأساس يضع الشيخ زكي إبراهيم هذه التجاوزات - سواء كانت غلوًا في التزهّد أو وقوعًا في البدع والمناكر - في إطارها الطبيعي، بالنظر إليها على أنها عوارض بشرية لا يخلو منها مجتمع أو مذهب، معتبرًا أنّ شأن أصحابها "شأن المرضى في عوالم الأصحاء"، فلا يصحّ القياس عليهم ولا تعميم أحكامهم على وادي التصوف الشاسع (13). وبذلك يلتقي المنهج الإصلاحى عند الناصري مع المنهج التحقيقي عند زكي إبراهيم في هذه النقطة المركزية، وهي أنّ تعرية البدع والسلوكيات الدخيلة هي في جوهرها حماية للأصل الصحيح، وصيانة لمقام التزكية من أن يُنسب إليه ما ليس منه.

3. العودة إلى سلف الأمة من رجال التصوف:

أمام هذا الركام من الانحرافات السلوكية لم يجد الناصري بدءًا من العودة بالأمة إلى ينباع الأولى، مستشهدًا بمن سماهم رجال السلاسل الذين قيدوا "طريقهم المأخوذة عنهم والمعزوة إليهم بالشرعية الغراء، وبنوها على اتباع السنة واجتناب ما خالفها" (14). وكأني به يريد من خلال هذا التأصيل التاريخي أن يثبت أن لقب "الصوفي" في أصله لم يكن إلا علامة فارقة لتمييز أهل السنة عن أهل البدع؛ حيث استند إلى كلام أبي القاسم القشيري في رسده لتراتب المراتب الفاضلة، ونص كلامه: "أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا فضيلة فوقها، فليل لهم: الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة: التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين،

(12) محمد زكي إبراهيم، المشروع والمنوع، ص78.

(13) محمد زكي إبراهيم، المشروع والمنوع، ص78.

(14) المكى الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليفة، ص96.

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقبل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهدا، فانفرد خواص أهل السنة المرعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة⁽¹⁵⁾.

ومن أجل قطع الطريق على كل من يحاول فصل الحقيقة عن الشريعة نجده قد حشد كثيرا من مقولات الإمام الجنيد البغدادي، التي تسير في الاتجاه نفسه، ومنها قوله: "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"⁽¹⁶⁾، وقوله: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم"⁽¹⁷⁾، وغيرها. كل ذلك من أجل التأكيد على أن العلم والاتباع هو صمام الأمان الوحيد الذي يمنع انزلاق السلوك نحو الممارسات البدعية التي سبق نقدها.

وعلى النهج ذاته يستدعي الناصري إرث الصدر الأول عبر استشهاده بكلام الحسن بن علي، الذي وضع معياراً ذهبياً لمعرفة الطريق الحق؛ حين قال: "الطرق إليه كثيرة، وأصح الطرق وأعمرها وأبعدها عن الشبه اتباع السنة قولاً وفعلاً وعزماً وعتداً ونية"⁽¹⁸⁾، وأن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا عبر مجانبة البدع، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء المسلمين.

(15) عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 34/1.

(16) القشيري، الرسالة القشيرية، 79/1.

(17) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (مصر: مطبعة السعادة، 1394هـ)، 257/10.

(18) أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ)، ص 198.

4. التصوف علاج ناجع لأمراض الأمة:

وهكذا يصل الناصري في نهاية هذا التطواف المعرفي - وهو يحمل همّ الأمة- إلى صياغة رؤية جامعة تجعل من التصوف مدرسة تربوية وعلاجاً ناجعاً لأمراض الأمة؛ إذ يخلص إلى أن "الصوفية مجمعون على تعظيم الشريعة مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها"⁽¹⁹⁾، مستنداً في ذلك إلى شهادة أبي إسحاق الشاطبي بأن كبار أرباب هذا المسلك هم في الأصل علماء وفقهاء ومحدثين، ممن يؤخذ عنهم الدين أصولاً وفروعاً⁽²⁰⁾. ومما يستفاد من كلام المكي الناصري أن غياب الفقه عن السلوك هو الذي فتح الباب أمام الانحرافات، بينما "طريق القوم المسلك مبني على ملازمة الكتاب والسنة، وترك البدع والأهواء، ومعاداة مرتكبيها، وتربية الإرادة، وحسن النية، والإخلاص في العمل"⁽²¹⁾، وصولاً إلى الغاية الأسمى، وهي تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله سبحانه.

ثم إنه يخلص بعد عقد مقارنة فاحصة بين تصوف السلف وتصوف الخلف إلى أن المنهج الذي وضعه الأوائل يمثل أرقى ما به يستعان على تهذيب النفوس وترسيخ قيم الدين⁽²²⁾. وهذا الاستنتاج هو ما يبعث في نفسه حسرة عميقة على ضياع تلك الأصول في واقع عصره؛ إذ يعتقد جازماً أن متصوفة اليوم لو ساروا على نهج المؤسسين الأوائل لصاروا منارات للاعتدال ومنبعاً لرشاد الخلق، ولخدموا السنة النبوية خدمة جليلة تعيد للطرق الصوفية هيبتها ومكانتها بوصفها مؤسسات تربوية واجتماعية يشار إليها بالبنان.

(19) المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليفة، ص 116

(20) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الطبعة الأولى، (السعودية: دار ابن عفا، 1412هـ)، 1/132.

(21) المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليفة، ص 116.

(22) المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليفة، ص 121.

وهكذا يتأكد أن الرجل لا ينشد هدم الطرق الصوفية - كما قد يتوهم البعض - بل يروم استعادة وظيفتها التربوية والحضارية، خاصة بالنسبة لعامة الناس الذين جُبلوا على محبة الصالحين وحسن الظن بالأشياخ؛ فكان يرى في إصلاح تلك الطرق وسيلة ناجعة لتوجيه هذه العاطفة الدينية الفطرية نحو الاستقامة الحقة والبناء الحضاري المتين.

وعطفًا على ما تقدم، يضع الناصري يده على ممكن الداء ليقدم الوصفة العلاجية التي يراها كفيلة بنهضة الأمة، مؤكدًا أن "علاج الأمة الناجع فيها والدواء النافع لها، إنما يكون برجعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كلف في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب النفوس وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة"⁽²³⁾.

وهذه في الحقيقة رؤية متبصرة تنم عن تفاؤل كبير بقدرة المسلم على تغيير حاله وتجاوز كبواته؛ فالرجل يؤمن بأن بذرة التدين أو جرثومة الدين - كما يسميها - تظل حية ومتأصلة في النفوس بالوراثة مهما تراكم عليها غبار الغفلة. ومن ثم فإن معركة الإصلاح في نظره لا تحتاج إلى مستحيل، بل يكفيها نفخة واحدة متحدة من المصلحين الصادقين لتسري في الأرواح وتعيد للأمة وهجها، بما يضمن عودتها إلى سكة النجاح الحضاري وبلوغ أسمى مراتب الكمال الإنساني.

المطلب الثاني: مرجعية الاتباع ووظيفة الأخلاق الحضارية:

1. الاتباع أصل مرجعي للتصوف السني:

إن النقد الشديد الذي وجهه المكي الناصري إلى الطريقة المبتدعة إنما مرده إلى خرقها لمرجعية الاتباع، وكل المعضلات التي تحدث عنها تشترك في هذا الأمر. ولما كان أمر الابتداع عنده بهذه الخطورة والجسامة كانت الدعوة إلى الاتباع بنفس الحجم من الأهمية والمكانة. ولهذا نجده يؤكد قائلاً: "فالاتباع أصل الفضائل كلها، وأس الكمالات بأسرها،

⁽²³⁾ المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 124

والابتداع رأس الفضائح والمصائب، والسبب في اضمحلال الأمم وانحطاطها وما يصب من اللعنات عليها ويحل بها كل لحظة من القوارع والنواب" (24).

ذلك أن التحول الحضاري الكوني للأمة لم يكن ليتحقق لولا تلك القوة التهذيبية الكامنة في تعاليم الدين؛ فقبل بزوغ أنوار الهدى كانت النفوس غارقة في عادات الجاهلية ومنكراتها، تعاني من شتات الإرادة وفوضى الأخلاق، كما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَعْنَى صَلَافٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]. إلا أن امتثال الأمة لمنهج (الاتباع) أحدث ثورة أخلاقية شاملة، لم تكتفِ بتنوير العقول فحسب، بل قامت بتقويم السلوك وتسديد الأحكام.

نعم، إن للاتباع أثرا بالغا في تركية النفوس وتنوير العقول وتوحيد شتات الأمة وصلاح شأنها. إذ "ما جمع كلمة الأمة العربية وأهض هم آحادها، ولحم ما بين أفرادها، إلا اتباعها لذلك الدين القويم الأصول، المحكم القواعد، الشامل لأنواع الحكم، الباعث على الألفة، الداعي إلى المحبة، المركزي للنفوس، المطهر للقلوب من أدران الخسائس، المنور للعقول البشرية، النافع روح الإباء والشمم في معتنقيه، الكافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية والحفاظ لوجودها، المنادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية. ذلك الدين الإسلامي الذي هو دين الفطرة والكمال، المانح للعقل والإرادة شرف الاستقلال، المقيم قواعد العدل والمساواة، الأمر بمجاهدة النفس في سبيل الخير ولي عنانها عن طريق الغي والهوى، المرشد إلى منهج الحق والهدى، الحامل على السير في محجة القصد والاعتدال، والتوسط في كل الأحوال، الآتي بما لا تحلم به أفكار الفلاسفة ونهاية ما تطمح إليه دعاة الفضيلة ونصراء الإنسانية من بث الفضائل والخيرات والقضاء على المفسد والمنكرات" (25). ويتحصل من هذا الحشد للمكارم أن الناصري ينظر إلى الأخلاق على

(24) الملكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 79.

(25) الملكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 81.

أنها الوقود المحرك للنهضة؛ فإذا فقدت الأمة صدقها وأمانتها فقدت بالتبع مرور وجودها الحضاري.

2. الأخلاق أصل مرجعي للتصوف السني:

إن رسالة الختم هي رسالة أخلاقية بامتياز، ورسولها هو رسول الأخلاق بامتياز، فالإسلام هو الدين "الأمر جميع معتنقيه بالاتصاف بسائر الأخلاق السامية، والشيم العالية. مما أجمع العقلاء على استحسانه واجتهاد دعاة الفضيلة في سبيل نشره ووسائل بيانه كالصدق، والحياء، والنزاهة والغيرة، والشجاعة والإقدام، والثبات، والمثابرة على العمل، والصبر الذي لا ينفد، والجلد الذي لا يهن، والاستهزاء بغرور الحياة، وحقارة الدنيا، والائتلاف والتعاون، والمؤاخاة، والاتحاد، وحب الوطن، وعلو الهمة، والوفاء بالعهد، والإخلاص في العمل، والنجدة، والكرم، والمروءة، والفتوة، والاقتصاد وطهارة الذمة، والشكر، والعفو، والحلم، والوقار، والأناة، والتواضع، ولين الجانب وصلة الرحم، والبرور، والشفقة، والرحمة، والعفة، والورع، وإيثار الغير، وعدم الاستئثار، وغير هذا من مكارم الأخلاق الإسلامية التي كانت شأن سلفنا الصالح وشنشتهم حتى وصلوا في المدنية إلى أقصى غاية، وجاوزوا فيها حد النهاية"⁽²⁶⁾.

وهذه الأخلاق التي جاء بها الإسلام ليست أخلاقاً مثالية تنظيرية، فهي أخلاق العمل والفعل، ولذلك نجد القرآن الكريم يقرن دائماً ما يقرن بين الإيمان والعمل الصالح الذي هو الالتزام بالأخلاق في مختلف مجالات الحياة الفردية والجماعية والمؤسسية، فلا يمكن لمجتمع أن تقوم لها قائمة ما لم يتحقق فيه ما يسمى في الاصطلاح الحديث بتخليق الحياة العامة، وإن من تجليات هذا التخليق ومقاصده تحقيق المقاصد الشرعية العليا. وهذا التلازم بين الأخلاق والمقاصد هو ما عبر عنه المكي الناصري بقوله: "وكما اتجه كتاب الله بجملة من الأوامر والنواهي إلى مختلف الأفراد فخطابهم بما فردا فرداً، اتجه أيضاً بجملة من

⁽²⁶⁾ المكي الناصري، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، ص 81-82.

الأوامر والنواهي ذات الصبغة الجماعية إلى الأمة الإسلامية في مجموعها، وهذه الأوامر والنواهي تتعلق "بالكليات الضرورية" التي تتوقف حياة المجتمع الإسلامي عليها كل التوقف، وبدونها يتعذر العمران، ويفشو الانحلال، ويضيع الأمن ويفسد النظام" (27).

وقد استدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: 31] في الدعوة إلى حفظ النسل والإبقاء عليه، وبقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32] في الدعوة إلى حفظ العرض وصيانة النسب، وبقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: 33] في حفظ الأنفس وصيانة الأرواح، وبقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34] في الدعوة إلى حفظ المال وتنميته والابتعاد في كسبه عن كل أساليب الغش والتدليس، وبقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] في الدعوة إلى حفظ الدين والتزام ميثاق التوحيد الذي واثق الله به عباده وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، وغيرها من الآيات الداعية إلى صون المقاصد العليا التي بها بناء الإنسان والعمران.

هذا التلازم بين الأمرين هو الكفيل بتحقيق سعادة الإنسان في العاجل والآجل، ولا يحتاج ذلك سوى "من يزيل الستار عن محاسن [الإسلام]، ويبين ما جاء به من الأخلاق الفاضلة، والسجايا الجميلة والعوائد الحسنة، التي يجب أن تكون أساسا متينا في تربية الناشئة وتهذيبها، والوسيلة الفعالة في غرس المحبة القومية في نفوسها، حتى يتأتى لها بذلك القيام بواجباتها الدينية والوطنية، لأن الأخلاق الفاضلة، والشيم الكاملة، ما انتشرت في أمة إلا وارتفع مجدها، وعلا شأنها، وتهيأت أسباب سعادتها، ونهضة الأمم والشعوب متوقفة على اتصاف أفرادها بمكارم الأخلاق وحسن المعاملة والآداب ومحو الرذائل ونشر الفضائل،

(27) محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985م)، 390 / 3.

الأصول الأخلاقية للتصوف السني عند المكي الناصري (ت 1414هـ) وأبعادها المقاصدية

وكل أمة تريد أن تسترد ما فقدته من منار عزّها وتعيد ما ذهب من تالد مجدها وتجدد ما اندثر من معالم فخارها، وتجمع ما تبعثر من آمالها، فلا بد لها من أن تحافظ على ما بقي لها من مكارم أخلاقها وقوميتها، وإلا فلا أمل في نهوضها وحياتها"⁽²⁸⁾.

⁽²⁸⁾ المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، ص 125-126.

المبحث الثاني

منهج التزكية والتحقق الروحي

إذا كانت الأصول المرجعية قد رسمت الحدود الفاصلة بين الحقيقة والوهم أو بين الحق والادعاء، فإن هذا المبحث يأتي ليفصل القول في جانب البناء النفسي. فلقد صاغ الناصري الأخلاق صياغة منهج متكامل للتزكية؛ يبدأ من تصفية الباطن ليصل إلى التحقق الإيماني الصادق، ومن ثم يثمر صمودًا أخلاقيًا يحفظ كرامة الإنسان. فهو إذن مسار متكامل يتبدئ من محورية التزكية، مرورًا بمقامات التحرر النفسي، وصولًا إلى قيم الصمود والمحاسبة التي تشكل سياج الكرامة الإنسانية.

المطلب الأول: محورية التزكية في البناء الروحي:

إن الأخلاق العملية الراقية التي يعبر عنها الإنسان بجوارحه ليست في الحقيقة إلا فيضًا وترجمة لما استقر في قلبه من معاني التزكية والطهارة؛ فكلما تحقق الباطن بالصفاء، فاضت أنواره على السلوك الظاهر. ولهذا كان تركيز الخطاب القرآني طيلة فترة الدعوة المكية أساسًا على تطهير القلوب وتركيتها، بل قد جعل ذلك من أسمى مقاصد بعثة الأنبياء والرسول؛ يقول سبحانه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]، ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 164]، ويقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: 2]. ويبان ذلك أن ورود التزكية مقدمة على التعليم في هذه الآيات يؤكد "أن الإسلام يهتم بتربية النفس وتهذيب الأخلاق في الدرجة الأولى، ويهتم بتثقيف

العقل وتوسيع معلوماته في الدرجة الثانية⁽²⁹⁾. وأحسب أن هذه التراتبية القرآنية المحكمة تضعنا أمام حقيقة تربوية بالغة الأهمية؛ وهي أن فساد الأخلاق يذهب بثمرة العلم، ويجعل صاحبه خطرًا داهمًا على المجتمع، فالعلم بلا أخلاق سلاح في يد عابث.

فعلى الرغم من أهمية العلم والمعرفة إلا أن التزكية تظل البوابة الآمنة لتحقيق السعادة المعبر عنها في القرآن بالفلاح، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ [الشمس: 9]. فالفلاح هنا مرتبط عضوياً بقدرة الإنسان على تنمية فضائل نفسه واجتناب الشرور التي تعوق سيرها نحو الخير. فتزكية النفس إنما تكون بالعمل الذي يجعلها زاكية أي طاهرة كثيرة الخير والبركة⁽³⁰⁾.

وأساءل هنا: كيف يرجو المرء فلاحاً وهو لم يبذل جهداً في تنقية قلبه من شر الأناية والاستعلاء؟

أما بخصوص التفرقة بين التزكية المحمودة والمذمومة، فإنه يتعين التحذير من الانزلاق في فخ "تزكية النفس" بالمعنى السلطوي أو الاستعلائي الذي نهى عنه القرآن في قوله: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32]، وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 49]. ولهذا يؤكد الناصري أن "التزكية الحقيقية بالأفضلية والأسبقية إنما تكون بأمر الله ومن عنده، وما عداها من التزكيات الشخصية والملففة، إنما هو محض كذب على الله ومجرد افتراء على الناس"⁽³¹⁾.

وعلى هذا الأساس يتأكد لنا أن التزكية في نظر الناصري هي عملية "تخلية" شجاعة من رؤية النفس والإعجاب بها، تتبعها "تخلية" بجمال الافتقار الصادق للخالق سبحانه. ولعل السر الكامن خلف تشديده على أن التزكية الحقيقية هي منحة إلهية وأمر من عنده

(29) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 6/ 231.

(30) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م)، 5/ 123.

(31) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 1/ 340.

سبحانه يكمن في رغبته الحثيثة لإبقاء السالك داخل دائرة العبودية الحققة، بعيداً عن أوهام الكمال الشخصي التي قد تفتك بالإنسان في سيره إلى الله. إن هذه النظرة الفريدة إلى التزكية باعتبار محوريتها في الطريق إلى الله بمقدورها أن تمنح التصوف السني هويته الحققة، وتجعل منه منهجاً عملياً لصياغة المؤمن السالك الذي يتحرك بالحق في سيره إلى الحق، بعيداً عن الادعاءات الزائفة التي نخرت جسد الطريقة وشوهت جمالية التصوف المتأسس على الكتاب والسنة.

المطلب الثاني: مقامات التحرر النفسي ومقتضيات التحقق الإيماني:

يحتل مقام التوحيد موقع الصدارة في فكر الناصري الأخلاقي، إذ يعتبره قوة تحريرية كبرى تخرج الإنسان من ضيق الأوهام إلى سعة اليقين. كما أنه يربط بين اختلال العقيدة واختيار السلوك؛ فالشرك في نظره "هو علة العلل في الفساد الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي، ولا دواء له إلا عقيدة التوحيد الإسلامية، التي تحرر الفكر والعقل من سيطرة الخيالات والأحلام، وتحرر القلب والنفس من سيطرة الأهواء والأوهام"⁽³²⁾. وبذلك يرى في التوحيد ترياقاً لشتات النفس وحيرتها، وضمانة لاستعادة التوازن المفقود بين متطلبات الروح وأحوال الواقع.

وهذا المعنى الفريد لمقام التوحيد ليس إلا امتداداً لما كان عليه الصدر الأول من سلف الأمة؛ وهو المعنى الذي جلاه أبو حامد الغزالي حين أشار إلى أن التوحيد عندهم كان عبارة عن أمر "أن يرى [الإنسان] الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط؛ فلا يرى الخير والشركه إلا منه جل جلاله"⁽³³⁾. فالتوحيد بهذا المعنى هو الذي يعيد تعريف وضع الإنسان الطبيعي في هذا الكون، فبمجرد أن يدرك

(32) الملكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 2/ 186.

(33) محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار المعرفة، د.ت) 33/1.

العبد علاقته بخالقه، ينطلق لأداء رسالته؛ متحررا في سيره من جميع العقد النفسية، واثقا من نفسه ومن العناية الإلهية به.

وإذا كان التوحيد هو الأصل، فإن الإخلاص هو الروح التي تسري في جسد هذا الأصل لتبعث فيه الحياة؛ وقد حار العلماء والعارفون في تعريفه فكثرت عباراتهم وتعددت، حتى قال الجنيد: "الإخلاص سر بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله"⁽³⁴⁾. ولقد كانوا يعظمون أمره ويستشعرون خطورته البالغة على قبول العمل؛ فهذا أبو يوسف بن الحسين يقول بلسان المكابذ: "أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه نبت على لون آخر"⁽³⁵⁾.

أما الناصري فيرى الإخلاص في أبسط وأعمق صورته متمثلاً في "إفراد الله وحده بالعبادة، وتصفية عبادته من كل الشوائب"⁽³⁶⁾. بيد أن الملاحظ في طرحه هو شمولية هذا الإخلاص واستيعابه؛ فهو يشمل "الإخلاص لله في القول والعمل، والابتعاد عن كل ما هو باطل وفساد، نية واعتقاداً"⁽³⁷⁾. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5]. وذلك بتجنب الميل إلى الباطل من قريب أو بعيد. وأحسب أن هذا الانضباط الأخلاقي الصارم هو الذي يحمي السالك إلى الله من السقوط في فخ المداهنة أو التماس رضا الخلق على حساب الحق.

وعلى مستوى المعاملات الاجتماعية يظهر الإخلاص عند الناصري كمسلك لتطهير البذل والعطاء من شوائب "الأنا"؛ ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264] يقرر أن "الصدقة الحقيقية التي يقبلها الله هي الصدقة التي تتبعث عن مجرد الإخلاص والإيمان بدافع قلبي صادق، بحيث لا يتبغي

(34) القشيري، الرسالة القشيرية، 361/2.

(35) القشيري، الرسالة القشيرية، 362/2.

(36) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 5/ 293.

(37) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 6/ 453.

من بذلها من ورائها إلا طاعة الله وامتنال أمره في الإحسان إلى إخوانه مما رزقه الله، ابتغاء مرضاة الله بالخصوص، وبحيث لا ينتظر عنها أي تعويض مادي أو أدبي، لا شكرا ممن أعطيت له، ولا ذكرا بين بقية الناس" (38).

بل إن الإخلاص عنده يمتد اجتماعيا ليشمل الوفاء للأرض والمقدسات، مما يربط بين سلامة الطوية وبين صدق المواطنة والدفاع عن حوزة الوطن، وقد تجلّى عمليا في نضاله المستميت ضد الاستعمار الأجنبي، ولا أدل على ذلك من كثرة ما كتبه من مقالات ومؤلفات ذات الصلة بهذا الأمر.

وبعد الإخلاص تأتي مراقبة الله التي هي ثمرة الإيمان؛ فمتى حصل الإيمان الحق أثمر حضور الله في تصور الإنسان وممارسته "ومن راقب الله قولاً وعملاً، ظاهرًا وباطنًا، كان أقرب إلى الكمال، وأبعد عن النقص" (39).

وهذه المراقبة هي يقظة وجدانية مستمرة يغذيها "الذكر" الذي لا يقتصر على اللسان "بل تقتضي ذكره وحضوره في الذهن والقلب والخاطر باستمرار، وبذلك تكون مراقبة العبد لربه في تصرفاته متصلة دون انقطاع، لا في الليل ولا في النهار" (40). فتكون المراقبة بمثابة حركة ضمير أخلاقي يقظ؛ يمنع الإنسان من السقوط في أحوال النقائص، ويقوده نحو كمال إنساني يليق بخلافة الله في الأرض. ويتحصل من هذا كله أن التحقق الروحي عند المكّي الناصري ليس انعزلاً عن العالم الخارجي، أو هروبا من الواقع، وإنما هو حضور مع الحق، يصحبه قيام بواجب الخلق في أرقى صور المسؤولية والشهود الحضاري.

(38) المكّي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 1/ 177.

(39) المكّي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 3/ 333.

(40) المكّي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 5/ 131.

المطلب الثالث: قيم الصمود الأخلاقي والكرامة الإنسانية:

تتأسس الفاعلية الأخلاقية في رؤية الناصري على صلابة أخلاقية لا تلين؛ فالصبر عنده ليس استسلاماً للأقدار، وتقاعساً عن العمل، وخلوداً إلى الأرض، وإنما قوة إيجابية تقتضي الثبات واليقين في حمل الدين، وتحمل الأذى في سبيل تبليغه والدفاع عنه⁽⁴¹⁾. ولعل هذا الفهم يجد أصله العميق فيما قرره ابن القيم من أن الصبر هو "الاسم الجامع" الذي تتفرع عنه سائر مقامات الدين ومنازله الأخلاقية؛ فهو يرى أن الصبر يتخذ اسماً يخصه بحسب متعلقه؛ فحبس النفس عن الشهوة المحرمة يسمى "عفة"، وعن فضول العيش يسمى "زهداً"، وعن إجابة داعي الغضب يسمى "حلمًا"، وعن إجابة داعي العجلة يسمى "وقاراً وثباتاً"، وعن إجابة داعي الإمساك والبخل يسمى "جوداً"....⁽⁴²⁾. وعلى أساس هذا الشمول فإن الصبر عند الناصري -باعتباره ركيزة الصمود- ليس قيمة مفردة معزولة، بل منظومة قيمية متكاملة؛ فالمجاهد الصامد يحتاج إلى شجاعة الصبر في الميدان، ووقار الصبر عند الفتن، وعفة الصبر عن المطامع... وكل ذلك يجعل من الصبر المحرك الباطني الذي تتولد منه كل الفضائل العملية الصالحة لمواجهة تحديات الحياة وعواقبها.

كما أن التواضع عنده ليس مرادفًا للضعف أو الهوان في معاملة الخلق، بل هو ثمرة إيمانية تتأسس في الأصل على التواضع للخالق لا للخلق، وقد جاء في الحديث: "من تواضع لله رفعه الله"⁽⁴³⁾. فالفارق بين التواضع والمهانة أن التواضع مقامٌ وجودي يتولد من معرفة الإنسان بالله وبأسمائه وصفاته سبحانه، ومن معرفته بنفسه، من حيث عيوبها وآفاتهما

(41) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 5/ 89.

(42) شمس الدين ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار ابن كثير، 1409هـ)، ص 20.

(43) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، تحقيق: أبو هاجر زغلول، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ) 276/6.

ونقائسها، فينتج عن هذا المزيج انكسارٌ قلبي لله وخفضٌ جناح الذل والرحمة بعباده؛ بحيث لا يرى العبد لنفسه فضلاً على أحد، بل يرى الفضل للناس عليه. أما المهانة فهي على العكس من ذلك تمامًا؛ إذ تمثل حالة من الدناءة والخسة التي تنشأ عن ابتذال النفس وبذلها في سبيل نيل الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية.

وهكذا فإن التواضع في فكر الناصري هو "عزةٌ باطنية" تمنح المؤمن توازنه في علاقته بالله وبالناس؛ فهو منكسرٌ لمولاه، رحيمٌ بخلقه، لكنه صامدٌ عزيزٌ أمام كل ما يمس كرامته أو يقيد حريته، وهو خلقٌ اصطفائي لا يمنحه الله إلا لمن أحبه وأكرمه وقربه. وإن من شأن التحرر من عاهة الكبر -بحسبه- أن يفتح مغاليق الفهم، ويجعل المرء "أسرع إلى قبول النصيحة فور سماعها، وإلى اتباع الهداية بمجرد إشراق نورها"⁽⁴⁴⁾.

هذا التحرر الباطني ينعكس على المستوى الاجتماعي في صورة عزة وكرامة ترفض كافة أشكال الاستلاب والاستعباد؛ حيث يقرر الناصري أن حرية الاستقرار بالأوطان وحرية الضمير يمثلان حقوقاً أساسية ملازمة للوجود الإنساني⁽⁴⁵⁾. ويتسع هذا المنظور التحرري ليشمل ضمان حرية الاعتقاد للمخالفين وحماية مقدساتهم، تأسيساً على المبدأ القرآني ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]. فتكون بذلك الكرامة الإنسانية في هذا المنهج وحدة موضوعية لا تقبل التجزئة، ويكون الدفاع عن حوزة الوطن وعقيدة التوحيد هو التطبيق العملي للقيم الأخلاقية التي تأتي الخنوع للظلم والطغيان.

ولا تكتمل هذه المنظومة إلا بقيمة مراقبة النفس ومحاسبتها، لما لذلك من أثر بالغ في تحقيق الصمود الأخلاقي، وهذه المراقبة هي ما يشير إليه النداء القرآني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانظُرُوا أَنفُسَكُمْ قَبْلَ أَن تَحْسَبُوا، وَانظُرُوا مَاذَا ادخَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرَضِكُمْ

(44) الملكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 5/ 367.

(45) الملكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 4/ 179.

على ربكم" (46). وتمثل محاسبة النفس -بحسب الناصري- مسلك الرقابة والترميم الدائم للسلوك؛ فإقامة الشعائر -وفي مقدمتها الصلاة- تُعد في جوهرها مدرسة لمساءلة الذات عن الأوزار وتخفيف الاستغفار الدائم (47).

ويقرر الناصري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12] أن "تلك المراقبة الدقيقة التي لا يتم الإيمان بالغيب دونها هي أن ينكف المؤمن عن معصية الله، وإن كان لا يراه أحد، وأن يقوم بطاعة الله، وإن كان لا يشاهده أحد" (48). وهذه المراقبة هي إحدى صفات المؤمنين المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21]، فهؤلاء "لهم وجدان حي، قوي الحساسية، عميق الشعور، بحيث يراقبون الله في أعمالهم كل المراقبة، ويحرصون على الاستقامة في أحوالهم كل الحرص، سواء ما كان منها خصوصياً أو عمومياً" (49). وهو ما يجعل الفرد أمام مسؤولية أخلاقية جسيمة، تجعل من نقد الذات والمراقبة المستمرة لها ضابطاً سلوكياً مثمراً.

(46) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ)، 106/8.

(47) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 3/ 155.

(48) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 2/ 278.

(49) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 3/ 235.

المبحث الثالث

الامتداد الاجتماعي والمقاصد الإصلاحية

القصد الأساس من هذا المبحث هو تبيان كون الأخلاق التي يدعو إليها الناصري لا تتوقف عند حد التزكية الذاتية، فهي تمتد من حيز الذات إلى فضاء المجتمع والأمة؛ حيث يرى في التصوف السني قوة دافعة لعمارة الأرض وإقرار السلم الاجتماعي. ويمكن رصد هذا الامتداد من خلال العناصر الآتية.

المطلب الأول: مسؤولية الأمانة الكبرى وواجب عمارة الأرض:

يشكل مفهوم الأمانة في المنظومة الأخلاقية للمكي الناصري حجر الزاوية الذي يربط بين استقامة الفرد وصلاح المجتمع؛ فهي عنده رؤية وجودية شاملة تحدد هوية الإنسان وموقعه في الكون. ولذلك يصفها بأنها "شجرة وارفة الظلال ذات فروع وأغصان، ويندرج تحتها جميع الأعمال التي ائتمن الله عليها الإنسان، فتبدأ بالخلافة عن الله في الأرض، والقيام بتطبيق بنود الدستور الإلهي بين جنباتها... وتتسع الأمانة شيئاً فشيئاً حتى تشمل واجب المسلم في جميع مجالات الحياة؛ واجبه نحو ملته، ونحو أمته، ونحو دولته، ونحو مجتمعه، ونحو أسرته وأولاده، ونحو عماله وطلابه، ونحو نفسه التي بين جنبيه"⁽⁵⁰⁾.

وتنطلق فلسفة الأمانة هذه من المسؤولية الكبرى التي ارتضاها الإنسان لنفسه عندما أشفقت منها السماوات والأرض والجبال. كما بين الله ذلك في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]. وهذه الأمانة كما يفهم من كلام الناصري أمانة شاملة؛ فلا ينبغي اختزالها في جوانب ضيقة كما ذهب إلى ذلك بعض التفسيرات التي حصرتها في الصوم أو غسل الجنابة أو أمانات الناس وودائعهم... فهي أمانة مستوعبة

⁽⁵⁰⁾ المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 2/ 324.

وشاملة لكل وظائف الدين والدنيا، وهو ما يتقاطع مع قول القرطبي بأنها "تعم جميع وظائف الدين"⁽⁵¹⁾.

وهكذا تكون الأمانة هي المظلة الكبرى التي تندرج تحتها الكليات الخمس والمقاصد الضرورية؛ فالدين في صفاته أمانة، والنفس في صيانتها أمانة، والعقل في تنويره أمانة، والعرض في عفائه أمانة، والمال في تنميته وسبل كسبه وإنفاقه أمانة. ولا يقف هذا المفهوم عند حدود التنظير، بل يتعداه ليمس أدق تفاصيل السلوك الاجتماعي والمؤسسي؛ فأداء الزوج لواجبه الأسري ورعايته لحقوق أهله أمانة مقدسة، وإخلاص الموظف في عمله وصيانة وقت المرفق العام أمانة غالية، وحفظ العالم لعلمه وتبليغه للناس بصدق أمانة كبرى. إنها باختصار "ميثاقٌ أخلاقي" يحكم علاقة الإنسان بكل ما يحيط به، بحيث يتحول كل فعل بشري إلى ممارسة لمقتضيات هذه الأمانة التي لا تكتمل إنسانية الإنسان إلا بالوفاء بها. ويتعزز هذا المنظور الشمولي بما قرره أبو حامد الغزالي من أن أصل الأمانة يكمن في الباطن قبل الظاهر؛ حيث يقول: "قلب كل آدمي مستعد للأمانة ومطبق لها في الأصل، ولكن يشبها عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرنا"⁽⁵²⁾. أي تلك العوائق النفسية والمثبطات الذاتية التي تحجب الإنسان عن القيام بواجبه الوجودي. وبناءً عليه فإن الناصري يرى في التزكية الأخلاقية شرطاً ضرورياً لرفع هذه المثبطات؛ فبدون قلبٍ طاهرٍ من الأنانية تظل الأمانة عبئاً ثقيلاً ينوء به الإنسان، بينما بالترقية الروحية تنفك قيود النفس ليصبح المؤمن أهلاً للنهوض بأعباء الخلافة الإلهية.

وأما عن علاقة الأمانة بمفهومي الوسطية والشهادة ففي معرض تفسيره لقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

⁽⁵¹⁾ أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ)، 253/14.

⁽⁵²⁾ محمد بن محمد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفه النفس، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1975م)، ص 96.

شَهِيدًا ﴿ [البقرة: 143] يشير المكي الناصري إلى أن الآية تتحدث عن "الأمانة الكبرى التي ادخرها الله للمسلمين، واختارهم لحملها إلى كافة الأمم، بعدما نكل عنها أولئك الذين نقضوا عهد الله وميثاقه من أهل الكتاب" (53). فما أعظم مسؤولية الإنسان على هذه الأرض، وما أعظم مسؤولية هذه الأمة تحديداً.

ولما كان معنى الأمانة بهذا الشمول وجدناه يُنزلها منزلة القيمة الضابطة لمختلف الممارسات المهنية والإدارية؛ ففي كتابه "الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية" مثلاً يؤكد أن حماية المال الموقوف ووصول الحقوق لمستحقيها يدخل ضمن هذا التكليف الإلهي الشامل، وأن من تناط بهم مسؤولية هذا المال ينبغي أن يكونوا أهلاً لحمل أمانته. ونص كلامه: "يجب أن لا يكون على رأسها [أي الأوقاف] إلا من كان من الأفراد الممتازين، الحائزين على ثقة جماعة المسلمين من أهل العلم، والحزم، وبعُد النظر، والغيرة الدينية، والخلق المتين" (54). وهذا التركيز على اتصاف هذه الفئة بالخلق المتين كشرط للإدارة مما يعكس قناعة الناصري بأن القوانين الإدارية الجافة لا تكفي وحدها لحماية حقوق الضعفاء ومستحقي الأوقاف، بل لا بد من ضمير أخلاقي يراقب اليد التي تدير المال العام.

ولما كان الإنسان هو وحده الذي يتحمل مسؤولية كل فساد يقع في الأرض، وكل انحراف يصيب المجتمع، وأنه هو المسئول مباشرة عن نتائج فساد وإفساده مادياً وروحياً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41]، كان لزاماً عليه "أن يتحمل نتائج عمله انحلالاً واختلالاً، خراباً وزوالاً، ولو وقف الإنسان في سلوكه عند حد الصلاح والإصلاح، اللذين من أجلهما توجه الله بالخلافة عنه في عمارة الأرض، لما وقع في الأرض فساد، ولسعدت البلاد والعباد" (55).

(53) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 1/ 23.

(54) محمد المكي الناصري، الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، (المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1992م)، ص 84.

(55) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 5/ 45.

فهو إذن مطالب بأن يحمل رسالة الإصلاح في الأرض، باعتبارها "الهدف الأساسي من كل رسالة إلهية بعث الله بها إلى الناس، وهذه الرسالة تتلخص أولاً وأخيراً في إصلاح أحوال الناس إصلاحاً شاملاً، تصلح معه عقيدتهم، وتصلح معه شريعتهم، ويصلح معه سلوكهم، ويصلح معه مجتمعهم، وتصلح معه معاشهم، وتصلح معه علاقاتهم"⁽⁵⁶⁾. فيمتد بذلك الإصلاح إلى كل مجال من مجالات الحياة البشرية، فتتحقق خيرية الأمة وشهادتها على الناس.

المطلب الثاني: أخلاق الفعل الإيجابي ومرتكزات التضامن الاجتماعي:

لا يحرص المكي الناصري الأخلاق في دائرة التهذيب الفردي أو الخلاص الشخصي، بل يرى فيها الطاقة المحركة القادرة على إخراج المؤمن من ضيق العزلة إلى سعة المشاركة الاجتماعية. فالتخلق عنده لا يقتصر على مجاهدة النفس في بعدها الفردي، لكن يتجاوز ذلك ليصبح دافعاً إلى العمل والبناء في المجتمع. ولذلك نجد أنه يقرر أن المجتمع لا يستحق صفة "الإسلامية" الحقة إلا إذا تجسدت فيه قيم التضامن والتكافل والتعاون، وصار التأخي فيه واقعاً ملموساً يمنع الأذى ويجلب النفع للجميع⁽⁵⁷⁾. فلا يمكن تصور مجتمع مسلم إلا بتآزر أفراده وتلازمهم وتآخيهم. ومبدأ التكافل بحسبه هو أولى ثمار التحرر من سطوة الأنانية؛ وهو في ذلك يستلهم الهدى النبوي الشريف: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"⁽⁵⁸⁾.

⁽⁵⁶⁾ المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 3/ 140.

⁽⁵⁷⁾ المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 1/ 111.

⁽⁵⁸⁾ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، (13)،

ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب

لنفسه من الخير، (17) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن أجل ترسيخ هذا المبدأ عملياً فرض الله الزكاة التي هي حق الفقراء والمحتاجين؛ فالمقصد الأساس منها هو أن "يكون المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على درجة كبيرة من الإنسانية والتعاطف والتراحم والتواصل، بدلا من الأنانية والتقاطع والتهاresh والتقاتل، شعارهما "نفسى وأخى، بل أخى قبل نفسى، لا نفسى نفسى" (59). فالزكاة إذن هي الدعامة الكبرى التي تجعل من المال وسيلة للتآزر والتلاحم الاجتماعي.

إن شعار "بل أخى قبل نفسى" الذي يشير إليه المكى الناصري هو الجوهر الأخلاقي الذي امتدح الله به الأنصار في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، وهذا الإيثار هو ما عبّر عنه الجنيد قديماً بقوله: "ليس المتقى الذي يجب للناس ما يجب لنفسه، إنما المتقى الذي يجب للناس أكثر مما يجب لنفسه" (60). فالمؤمن الصادق حقا هو من يرى في سد خلة أخيه سداً لخلته، وفي كفاية مجتمعه كفاية لذاته، وهو مقام لا يناله إلا من روض نفسه على البذل وجاهد شحها حتى استأصله من جذوره، ليحل محله حب الخير للغير.

أما الرابطة الاجتماعية التي تنشدها هذه الأخلاق، فينبغي أن تكون كالبناء العضوي المتراص، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" (61). وفي هذا التشبيه النبوي تأكيدٌ بليغ على أن قوة الجماعة رهينةٌ بمدى تماسك

(59) المكى الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 4/ 181.

(60) عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ)، 1/ 271.

(61) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، (2446)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (2585) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

لبناتها؛ فصلاح الفرد وحده لا يكفي لبناء مجتمع متماسك ما لم ينتظم في إطار جماعي يقوم على التعاون والتضامن.

ثم إنه لم يغب عن الناصري البُعد الاستراتيجي لهذا التضامن؛ فقد أدرك أن تماسك الجبهة الداخلية للمسلمين هو السبيل الوحيد لحماية الأمة في معترك التدافع الحضاري. ومن هنا ينبه بذلك متبصر إلى تكتل خصوم الأمة وولاية بعضهم لبعض، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأَنْفَال: 73]، ليقرر أنه "لا يقاوم تضامن أهل الباطل وتكتلهم، ولا يقضى على آثاره السيئة، إلا بتضامن أهل الحق وتكتلهم صفا واحدا"⁽⁶²⁾. اقتداءً بالرعيل الأول من المهاجرين والأنصار الذين آووا ونصروا، فاستحقوا بذلك الولاية الحقيقية والشهادة على الناس. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأَنْفَال: 72].

المطلب الثالث: المقاصد القيمية للاستقامة والسلم والعدل:

لقد تأكد فيما تقدم أن المبادئ الأخلاقية في هذا المشروع تمثل البوصلة المقاصدية التي تتجسد في منظومة بنيوية متماسكة قوامها الاستقامة، والسلم، والعدل؛ فهي الأركان الحصينة التي تجعل من السلوك الفردي مادةً حية لبناء الحضارة وال عمران.

فأما الاستقامة فهي المحك الفعلي لصدق التدين، وهي القوة الدافعة التي تُظهر محبوة القلب من إيمان راسخ، وفي تأمله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَكْفُرُوا وَلَا تُخْرَفُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُتِبَ لَهُمْ يَوْمَ تَنْزِلُ﴾ [فصلت: 30] يخلص إلى أن "السركله في الاستقامة؛ إذ عن طريقها ومن خلالها يبرز

⁽⁶²⁾ المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 2/ 349.

ما ينطوي عليه القلب من عقيدة صالحة وإيمان صحيح⁽⁶³⁾. فهذا الترابط الوثيق بين المعتقد والسلوك هو ما يجعل الاستقامة برهاناً ساطعاً على نزاهة القصد ورسوخ المقامات السلوكية التي تضبط حركة الإنسان في معترك الحياة، وتحميه من الانزلاق خلف الأهواء العارضة.

وفي رحاب هذا المعنى تتسع دلالة الاستقامة عند ابن القيم لتشمل كيان الإنسان بأسره، فهي عنده "كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد"⁽⁶⁴⁾؛ وهذا الشمول يقتضي بالضرورة أن تفيض أنوار الاستقامة على "الأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات؛ فتكون الاستقامة فيها وقوعها لله، وبالله، وعلى منهج الله وأمره. وهكذا يكون المسلم منضبطاً بقانون إلهي حكيم؛ غايته نفع البشرية، وضبط أواصر القرى بين الإنسان وأخيه الإنسان، مما يحقق التوازن المنشود بين أشواق الروح وتدبيرات الواقع المعاش، فلا انفصال عنده بين عبادة الخالق وحسن التعامل مع المخلوق.

وأما السلم فهو بحسبه ضرورة شرعية ووجودية لا تستقيم حياة الناس ولا تزدهر حضارتهم إلا بظلمها؛ فالؤمنون مكلفون شرعاً بصيانة الدماء وإشاعة الأمن العام في ربوع مجتمعاتهم، وهو ما يفرض استبدال لغة الاقتتال بقيم الوفاء والوفاء التي تحفظ للناس أنفسهم وكرامتهم وأموالهم. فالسلم في حقيقته إنما هو ثمرة لتوازن القوى ودفع الباطل بالحق؛ ذلك أن الحكمة من مبدأ التدافع الإلهي المسطور في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251] هي في جوهرها "الضمان التعايش السلمي بين البشر، وفرض التعاون بينهم على عمارة الأرض وصلاحها"⁽⁶⁵⁾. فتكون النتيجة هي

(63) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 6/ 71.

(64) شمس الدين ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ) 2/ 106.

(65) المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 1/ 162.

تمكين الإنسان من تحقيق رسالته في الأرض، التي هي رسالة الإصلاح والعمران، وصيانة الحياة من الفوضى والدمار.

وأما قيمة العدل فيرفعها الناصري إلى مقام السياج الحامي للحقوق والمبطل للأطماع الجائرة؛ فالعدل في المعاملات هو الذي يقف حائلاً دون "الأناية والطمع في جميع المجالات، ولا سيما مجال العلاقات الاجتماعية وما تقوم عليه من المعاملات"⁽⁶⁶⁾. والعدل هنا هو الكابح الأخلاقي لجموح النفس الإنسانية، والموجه لنزعاتها نحو الإنصاف والنزاهة، وبدونه تتحول الحقوق إلى نخبٍ مشاع للأقوياء، ويتفشى الظلم الذي يهدم أركان الاستقرار، ويؤدي بالضرورة إلى وقوع الخراب الشامل على حد تعبير ابن خلدون في مقولته الشهيرة: "الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع"⁽⁶⁷⁾.

ويتقاطع هذا الطرح بصورةٍ جلية مع تأصيل الإمام الشاطبي لمقاصد الشريعة الغراء، حيث يرى أن "المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً"⁽⁶⁸⁾. فالعدل عند الناصري هو الميدان التطبيقي لهذا الخروج عن الهوى؛ إذ لا يتحقق العدل الكامل في الأحكام والتصرفات إلا إذا تجرد الفرد من أنانيته الضيقة، وأخضع رغباته لميزان الحق والإنصاف الإلهي، وبذلك يتحد المقصد الأخلاقي بالمقصد التشريعي لرسم معالم المجتمع الإسلامي الفاضل.

⁽⁶⁶⁾ المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، 1/ 115.

⁽⁶⁷⁾ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، (بيروت: دار الفكر، 1401هـ) 1/ 51.

⁽⁶⁸⁾ أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار ابن عفا، 1417هـ)، 2/ 289.

الخاتمة

يتضح مما سلف بسطه في هذا البحث أن المبادئ الأخلاقية في مشروع المكي الناصري تمثل البوصلة المقاصدية التي تتجسد في منظومة نبوية متماسكة؛ فلقد نجح الناصري في وضع الحدود الفاصلة بين حقيقة التصوف السني القائم على الكتاب والسنة، وبين العوارض السلوكية الدخيلة التي شابت بعض المسالك في عصره. ومع التأكيد على أن نقد الناصري لم يكن استهदाً لأصل المنهج السلوكي أو مقامات الصالحين، بل كان تشخيصاً دقيقاً لبعض الممارسات التي حادت عن جوهر التزكية، فإنه يخلص إلى أن المعضلات السلوكية التي أصابت الأمة إنما مرجعها الأصل إلى خرق مرجعية الاتباع، وغلبة الرسوم على الحقائق، والمظاهر على المقاصد.

وقد تبين أن التزكية في هذا المنهج هي المحور الأساس في البناء الروحي، وهي عملية تخلية شجاعة من رؤية النفس والإعجاب بها، تتبعها تحلية بجمال الافتقار الصادق للخالق سبحانه. فالتزكية تظل البوابة الآمنة لتحقيق الفلاح الوجودي، وهي التي تمنح العلم ثمرته الحقيقية. كما تبين أن مقامات التحقق الإيماني من توحيد وإخلاص ومراقبة ليست انعزلاً عن العالم أو هروباً من الواقع، بل هي حضور مع الحق يصحبه قيام بواجب الخلق في أرقى صور المسؤولية والشهود الحضاري.

أما على مستوى الامتداد الاجتماعي، فقد خلص البحث إلى أن الأخلاق عند الناصري هي الطاقة المحركة التي تخرج المؤمن من ضيق العزلة إلى سعة المشاركة الإيجابية؛ حيث يشكل مفهوم الأمانة المظلة الكبرى التي تندرج تحتها الكليات والضروريات الشرعية. فالتضامن الاجتماعي هو السياج الوحيد لحماية الأمة في معترك التدافع الحضاري، وهو الكفيل بمقاومة تكتل أهل الباطل، ليتحقق بذلك مقصد الولاية الإيمانية. ومن ثم تظهر قيم الاستقامة والسلم والعدل باعتبارها الأساس الذي يقوم عليه توازن المجتمع واستقراره الحضاري.

قائمة المراجع

- الأصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (مصر: مطبعة السعادة، 1394هـ).
- البيهقي، أبو بكر، شعب الإيمان، تحقيق: أبو هاجر زغلول، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ).
- الجيلالي، عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، ط2 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ).
- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، (بيروت: دار الفكر، 1401هـ).
- السلمي، أبو عبد الرحمان، طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ).
- الشاطبي، أبو إسحاق، الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الطبعة الأولى، (السعودية: دار ابن عفان، 1412هـ).
- الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1 (القاهرة: دار ابن عفان، 1417هـ).
- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار المعرفة، د.ت).
- الغزالي، أبو حامد، معارج القدس في مدارج معرفه النفس، ط2 (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1975م).
- القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ).
- القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف، د.ت).

ابن القيم، شمس الدين، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ط3 (بيروت: دار ابن كثير، 1409هـ).

ابن القيم، شمس الدين، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط3 (بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ).
ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ).

محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م).
محمد زكي إبراهيم، الإفهام والإفحام أو قضايا الوسيلة والقبور، (القاهرة: مؤسسة إحياء التراث الصوفي، 2004م).

محمد زكي إبراهيم، المختار من كتاب المرجع: معالم المشروع والممنوع من ممارسات التصوف المعاصر، ط5 (القاهرة: مؤسسة إحياء التراث الصوفي، 2005م).
محمد زكي إبراهيم، المشروع والممنوع، (القاهرة: دار إحياء التراث الصوفي، د.ت.).
الناصرى، محمد المكى، إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة، (المغرب: منشورات السبيل، 2010م).

الناصرى، محمد المكى، الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية (المغرب: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، 1992م).
الناصرى، محمد المكى، التيسير في أحاديث التفسير، ط1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985م).

References:

- al-Aṣbahānī, Abū Nu‘aym, Ḥilyat al-Awliyā’ wa-Ṭabaqāt al-Aṣfiyā’ (Miṣr: Maṭba‘at al-Sa‘ādah, 1394 AH).
- al-Bayhaqī, Abū Bakr, Shu‘ab al-Īmān, ed. Abū Hājir Zaghlūl, 1st ed. (Bayrūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1421 AH).
- al-Ghazālī, Abū Ḥāmid, Iḥyā’ ‘Ulūm al-Dīn (Bayrūt: Dār al-Ma‘rifah, n.d.).
- al-Ghazālī, Abū Ḥāmid, Ma‘ārij al-Quds fī Madārij Ma‘rifat al-Nafs, 2nd ed. (Bayrūt: Dār al-Āfāq al-Jadīdah, 1975).
- al-Jīlānī, ‘Abd al-Qādir, al-Ghunya li-Ṭālibī Ṭarīq al-Ḥaqq, ed. Abū ‘Abd al-Raḥmān Ṣalāḥ ibn Muḥammad ibn ‘Uwayḍah, 2nd ed. (Bayrūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1417 AH).
- al-Nāṣirī, Muḥammad al-Makkī, al-Aḥbās al-Islāmiyyah fī al-Mamlakah al-Maghribiyyah (al-Maghrib: Wizārat al-Awqāf wa-al-Shu‘ūn al-Islāmiyyah, 1992).
- al-Nāṣirī, Muḥammad al-Makkī, al-Taysīr fī Aḥādīth al-Tafsīr, 1st ed. (Bayrūt: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1985).
- al-Nāṣirī, Muḥammad al-Makkī, Izhār al-Ḥaqqīqah wa-‘Ilāj al-Khalīqah (al-Maghrib: Manshūrāt al-Sabīl, 2010).
- al-Qurṭubī, Abū ‘Abd Allāh, al-Jāmi‘ li-Aḥkām al-Qur’ān, ed. Aḥmad al-Bardūnī and Ibrāhīm Aṭfaysh, 2nd ed. (al-Qāhirah: Dār al-Kutub al-Miṣriyyah, 1384 AH).
- al-Qushayrī, ‘Abd al-Karīm, al-Risālah al-Qushayriyyah, ed. ‘Abd al-Ḥalīm Maḥmūd and Maḥmūd ibn al-Sharīf (al-Qāhirah: Dār al-Ma‘ārif, n.d.).
- al-Shāṭibī, Abū Ishāq, al-I‘tiṣām, ed. Sālim ibn ‘Īd al-Hilālī, 1st ed. (al-Sa‘ūdiyyah: Dār Ibn ‘Affān, 1412 AH).
- al-Shāṭibī, Abū Ishāq, al-Muwāfaqāt, ed. Abū ‘Ubaydah Mashhūr ibn Ḥasan Āl Salmān, 1st ed. (al-Qāhirah: Dār Ibn ‘Affān, 1417 AH).
- al-Sulamī, Abū ‘Abd al-Raḥmān, Ṭabaqāt al-Ṣūfiyyah, ed. Muṣṭafā ‘Abd al-Qādir ‘Aṭā, 1st ed. (Bayrūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1419 AH).
- Ibn al-Qayyim, Shams al-Dīn, Madārij al-Sālikīn bayna Manāzil Iyyāka Na‘budu wa-Iyyāka Nasta‘īn, ed.

- Muḥammad al-Mu‘taṣim bi-Allāh al-Baghdādī, 3rd ed. (Bayrūt: Dār al-Kitāb al-‘Arabī, 1416 AH).
- Ibn al-Qayyim, Shams al-Dīn, ‘Uddat al-Ṣābirīn wa-Dhakhīrat al-Shākirīn, 3rd ed. (Bayrūt: Dār Ibn Kathīr, 1409 AH).
- Ibn Kathīr, Abū al-Fidā’ Ismā‘īl, Tafsīr al-Qur’ān al-‘Aẓīm, 1st ed. (Bayrūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1419 AH).
- Ibn Khaldūn, ‘Abd al-Raḥmān, al-Muqaddimah (Bayrūt: Dār al-Fikr, 1401 AH).
- Muḥammad Rashīd Riḍā, Tafsīr al-Manār (Miṣr: al-Hay’ah al-Miṣriyyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, 1990).
- Muḥammad Zakī Ibrāhīm, al-Ifhām wa-al-Ifhām aw Qaḍāyā al-Wasīlah wa-al-Qubūr (al-Qāhirah: Mu’assasat Iḥyā’ al-Turāth al-Ṣūfī, 2004).
- Muḥammad Zakī Ibrāhīm, al-Mashrū‘ wa-al-Mamnū‘ (al-Qāhirah: Dār Iḥyā’ al-Turāth al-Ṣūfī, n.d.).
- Muḥammad Zakī Ibrāhīm, al-Mukhtār min Kitāb al-Marjī’: Ma‘ālim al-Mashrū‘ wa-al-Mamnū‘ min Mumārasāt al-Taṣawwuf al-Mu‘āṣir, 5th ed. (al-Qāhirah: Mu’assasat Iḥyā’ al-Turāth al-Ṣūfī, 2005).